

الفصل الرابع

الشيشان

أولاً: المسلمون فى الشيشان

تعتبر بلاد "الشيشان" بجالها الوعرة وغاباتها الكثيفة من المناطق التى لم تخضع عبر التاريخ لأى فاتح أو غاز بما فيها الفتوحات الإسلامية، وحتى بداية القرن السابع عشر، فقد بقى "الشيشان" بدون ديانة ولكن اعتناقهم للإسلام بدأ على يد الدعاة من "جمهورية الداغستان" المجاورة، و"من شبه جزيرة القرم" و"بخارى". ومنذ اعتناقهم الإسلام فقد أصبح "الشيشان" من أكثر شعوب "شمال القوقاز" تمسكاً بدينهم، وتاريخ صراعهم مع القيصرية يؤكد تمسكهم بالدين الإسلامى فلا القيصرية المسيحيون استطاعوا تنصيرهم ولا الشيوعيون نجحوا فى إبعادهم عن دينهم رغم تحريم الشيوعيين للمساجد والعبادة فيها مما اضطر الشيشاني إلى أن يكون بيته هو المسجد وخلال حرب القوقاز الأولى فإن المقاتلين الشيشان والداغستان الذين كانوا يحاربون صفًا واحدًا مع "الإمام شامل" كانوا يتوجهون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم وينشدون الأناشيد الدينية. كما يلاحظ أنه كان فى بلاد الشيشان فى عام 1837م (310) جوامع مفتوحة للعبادة، وقد وصل هذا العدد عام 1978م فى أثناء الحكم الشيوعى إلى النصف إلا أن هذا العدد أخذ فى الصعود مرة أخرى فى عهد جورباتشوف.

ثانيًا: التوسع الروسى فى القوقاز والشيشان

بعد حروب "نابليون" ظهرت روسيا القيصرية كأقوى قوة عسكرية فى أوروبا، خصوصًا أن بروسيا (ألمانيا حاليًا) و"النمسا" و"بولندا" كانت تابعة لروسيا القيصرية وتحكمها عائلات تمت بقرابة الدم لأسرة "رومانوف القيصرية". وبهذا الوضع العسكرى البارز لروسيا القيصرية بدأ "القيصر نيقولا" يعد العدة لغزو الهند. وكان عليه فقط إخضاع القبائل الإسلامية فى "شمال القوقاز" حتى لا يترك ظهره مكشوفًا لقوات معادية، خصوصًا أن "تركيا" و"إيران"، ورغم هزيمتهما فى "جنوب القوقاز" بقيتا معاديتين لروسيا القيصرية رغم سكوتها المؤقت. وبحلول عام 1828م أصبحت جميع بلاد ما "وراء القوقاز" تابعة للروس، ويوجد خلفها منطقتان كبيرتان مستقلتان، فكان يوجد "الشيشانيون" و"الأنجوشيون"، و"الداغستانيون" الجبليون على الجناح الشرقى، و"شراكسة أنجازتا" على الجناح الغربى. وفى سنتى 1828م-1829م حارب الروس "الأتراك" فى أول حملة رئيسة "قوقازية" واستولوا على "بوتى"، و"أنابا" وسيطر الروس هذه المرة على البحر الأسود بسبب معركة "نافارينو"، وهى ميزة لم يتمتع بها الروس فى الحروب القوقازية التالية.

وعندما قرر القيصر "الكسندر" احتلال القوقاز، اختار "يرملوف" لإخضاع "الشيشان"، بلد "الإمام منصور الشيشاني"، الذى تصدى لجيوش جدته الإمبراطورة "كاترينا الثانية" عندما أرسلت جيوشها لاحتلال "القوقاز الشمالى" عام 1785م، إذ كان "الإمام منصور" أو "أشورما" كما كان يسميه الروس الشوكة التى أدمت "كاترينا" الملقبة بالعظيمة فى "شمال القوقاز"، حيث هزم جيوشها طوال ست سنوات من خلال فرسان "الشيشان والداغستان والنوغاى والشرابة الذين لبوا نداء الجهاد الذى أعلنه الإمام منصور من قريته "الداى" مسقط رأسه فى بلاد الشيشان.

وكانت الخطوة الأولى التى شرع "يرملوف" فى إنجازها اختياره قرية شيشانية على ضفاف "نهر السونجا"، وهو أحد الأنهار التى تجرى فى بلاد "الشيشان"، واسم القرية كان "سونجارغالا"، وقام بهدمها وبنى على أنقاضها قلعة ضخمة عام 1818م أطلق عليها اسم "جروزنى"، وهى كلمة روسية تعنى الرهيب أو المهدد، وهو لقب كان يطلق على القيصر "إيفان" الملقب "بإيفان الرهيب" وهو أحد القياصرة الأوائل الذين أرسلوا دعائم "روسيا القيصرية". ويرملوف كان يهدف من إطلاق اسم "جروزنى" على قلعته فى بلاد "الشيشان" إبلاغ الشيشان وبقية شعوب "شمال القوقاز" بأن قلعة "جروزنى" ستكون قاعدة الانطلاق لقواته لتهدد وترهب كل من لا يطيع أو يخضع "للقيصير العظيم". وبالفعل كانت "جروزنى" نقطة انطلاق الجيوش الروسية فى جميع الاتجاهات فى "شمال القوقاز". ورغم بطش يرملوف وقسوته فى التعامل مع "الشيشان" واستخدامه سياسة "الأرض المحروقة" لإخضاعهم فقد فشل فى تحقيق مهمته، وتم عزله عام 1827م من قبل القيصر "نيقولا" الذى خلف والده القيصر الكسندر الأول. وفى عام 1830م أشعل "الإمام غازى ملا"، ثورة فى البلاد التى كانت قد أثارت حفيظتها الحملات التأديبية. ودمر العديد من الوحدات العسكرية الروسية، كما جرى اختراق لخط "القوقاز" فى عدة نقاط وتعرضت المدن الواقعة وراء "نهر تيرك" للغارات، ودامت الروسية التى تلت ذلك ثلاثة أعوام قبل أن يتمكن الروس من الاستيلاء على "غمرى" عاصمة الميردين، ومن قتل الإمام. وتسلم القيادة من بعده الإمام حمزة لفترة قصيرة، ثم قتل.

أما الإمام التالى فكان الإمام "شامل" الذى تسلم قيادة الحركة المريدية الإسلامية عام 1834م والتى نشأت فى بلاد "الداغستان" وتحديداً فى إقليم "أفاريا" مسقط رأس مؤسس الحركة الإمام غازى محمد الذى استشهد فى معركة غمرى عام 1832م. وعندما تسلم "شامل" قيادة الحركة المريدية فى "الداغستان" كانت معظم بلاد "الشيشان" تحت الاحتلال الروسى لكن السيطرة الروسية لم تكن قوية، وغياب القائد الذى يقوم "الشيشان" فى بلادهم جعلهم صابرين على مضض فى انتظار القائد المناسب للثورة؛ واستطاع "شامل" الصمود فى "الداغستان" من عام 1834م حتى 1839م حيث تم القضاء على قواته فى مقر قيادته ببلدة "أضولكو" فى إقليم "أفاريا بالداغستان"، لكن "شامل" تمكن من الهرب. ولم يُعر الروس اهتماماً لهروب "شامل" لأن غالبية قواته تم القضاء عليها فى معركة "أضولكو". ولم يبق من قواته عند هربه سوى عشرة أشخاص من حرسه الخاص. وكان لخيانة بعض أمراء "الداغستان" لـ "شامل" وانضمامهم للروس دور كبير فى هزيمته فى بلاده "الداغستان". وخلال سنة واحدة بعد هزيمته فى "أضولكو" ظهر "شامل" من جديد على مسرح الأحداث لكن هذه المرة فى بلاد "الشيشان" ونادى به الشيشان "زعيماً لهم" وتدفق عليه المقاتلون من الجبال جاهزين لمحاربة "الغارو"، "الجاور" أو "الغازقى"، وتعنى الكافر بالداغستانية والشيشانية على التوالى. وخلال 1840 – 1842م استطاع "شامل" بجيشه الجديد استرجاع "أفاريا" ومعظم الداغستان من الروس، وعاتب بشدة وبقسوة من خانوه من زعماء القبائل الداغستانية. وشجعت انتصارات "شامل" المتتالية

على الروس الشراكسة في الشمال الغربي من "القوقاز" وعلى سواحل البحر الأسود على الثورة ضد الروس إذا انقضوا على القلاع الروسية في بلادهم وأبادوا كثيراً من حاميتها وأصبح وضع القوات الروسية في "القوقاز" حرجاً للغاية مما دفع القيصر "نيقولا" إلى إرسال تعزيزات ضخمة للقوقاز مع أوامر صارمة باحتلال "دارغو" عاصمة شامل في بلاد الشيشان.

ثالثاً: الشيشان في ظل الشيوعية.

في مايو 1918م أعلن في مؤتمر "باتومي" عن تأسيس الجمهورية الجبلية المستقلة بحضور مندوبين من تركيا وألمانيا و"فيدرالية" ما وراء القوقاز - ولم يستمر بقاء الجمهورية الجبلية سوى فترة عامين. أما جبهة النضال الثانية فكانت ضد البلاشفة في داخل الجمهورية، وفي تلك الفترة المضطربة والمأساوية أصاب الشعب الشيشاني، وقسم من الداغستانيين اليأس من تحقيق آمالهم في الحرية، ولكنهم واصلوا النضال ضد قوات "دينيكين" ضد الجيش الأحمر دون أن يحالفهم النجاح.

وفي يناير عام 1934م ضُمت جماعات الشيشان والأنجوش وكونا إقليمًا مستقلاً ثم تطور إلى جمهورية ذات حكم ذاتي، ثم تلغى هذه الجمهورية بتهجير الجماعتين إلى أماكن أخرى متفرقة. ففي مطلع صيف عام 1941م هاجم الألمان النازيين الاتحاد السوفيتي - واتهم ستالين (حكم 1924-1953) (ألمان الفولجا، المسخيتين القرتشاي البلكار، الكالمك، الشيشان والأنجوش، وتثار القرم بالتعاون مع الألمان ضد الدولة الأم). وقام بتهجير هذه الأمم بأكملها رجالاً ونساء وأطفالاً من مواطنيها وكانت أربع من الأمم تقطن في المنحدرات الشمالية لجبال القوقاز. وهي الشيشان والأنجوش، والقرتشاي والبلكار. وكانت تشكل ثلث عدد المنفيين الكلى. وكان الشيشان أكبر شعب عانى من التهجير أو النفي، وبلغ عددهم نصف مليون عام 1939م وذلك إضافة إلى ذوى قرباهم الأنجوش، الذين كانوا يشكلون جزءاً من نفس الجمهورية الشيشانية الأنجوشية السوفيتية الاشتراكية

رابعاً: أوضاع الشيشان حتى الاستقلال سنة 1991.

تطورت الأوضاع في الشيشان مع ظهور جوهر دوداييف الذي ولد عام 1944 وبعد مولده مباشرة صدرت أوامر ستالين بتهجير شعب الشيشان جميعه من النساء والأطفال والرجال إلى كازاخستان، حيث مات 200 ألف منهم في المنفى وكانت عائلة دوداييف من بين المهجرين، وأمضى الرئيس الـ13 سنة الأولى من حياته في المنفى في جنوب كازاخستان. وفي عام 1957 عندما ألغى خروتشوف إجراءات ستالين القاسية الظالمة سمح للشيشانيين ومنهم عائلة دوداييف عام 1957م بالعودة إلى بلادهم، ودرس دوداييف حتى المرحلة الثانوية، ثم عمل كهربائياً وواصل دراسته ودخل جامعة "فيلاديففاس" ثم التحق بالكلية الحربية عام 1966م وتخرج في أكاديمية "تامبوف" كطيار حربي، وفي عام 1968م أصبح عضواً في الحزب الشيوعي كما كان مطلوباً من جميع الضباط في ذلك الزمان، ثم التحق بدورة عسكرية عليا في أكاديمية يوري جاجرين العسكرية للطيران في موسكو وترقى إلى رتبة لواء، وأصبح مسئولاً عن قوات سلاح الطيران والدفاع الجوي السوفيتي في منطقة سيبيريا. وبعد مهمات عسكرية في أوكرانيا وسيبيريا أصبح قائد القوات الجوية السوفيتية في استونيا ثم قائد فرقة إستراتيجية للطيران الاستراتيجي البعيد المدى، وبعدها قائداً لأسراب الطيران المسلح بالأسلحة النووية، ومدير الاستخبارات العسكرية في استونيا.. وقد رفض الأوامر من الحكومة السوفيتية عام 1991م بمهاجمة برلمان ومحطة وتليفزيون استونيا في أحداث يناير 1991م وعاد

إلى الشيشان وأصبحت له شعبية كبيرة، وحضر اجتماعات المؤتمر الوطنى للشيشان كمراقب ثم كعضو فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر. واستقال من الجيش السوفيتى للتفرغ للعمل السياسى فى بلاده. وقد انتخب رئيساً للشيشان فى أكتوبر عام 1991 وكان هدفه الحفاظ على الاستقلال وحمايته والحصول على الاعتراف به. وجوهر دوداييف مسلم متحمس للإسلام وهو متصوف يتبع الطريقة النقشبندية ومذهبه شافعى وهو من الداعين إلى وحدة شمال القوقاز "داغستان، الشيشان، الأنجوش، أوسيتيا، والكباردين، البلكار" وهو يبحث عن النموذج الإسلامى المعتدل، ولا يميل إلى العنف الدينى بأى شكل من الأشكال. وأمر بإعادة افتتاح 1550 مسجداً كان الشيوعيون قد أغلقوها، واتخذ قراراً بتبنى الدولة النشاط الإسلامى والدراسات الإسلامية، فأنشأ فى "جروزنى" معهد الدولة للدراسات الإسلامية، كما دعم إقامة معهد الإمام الشافعى للدراسات الإسلامية وبه معلمون مصريون.

أما عن تطورات الأحداث منذ إعلان الاستقلال، وحتى آخر فبراير عام 1995م فقد أعلنت جمهورية الشيشان استقلالها عام 1990 إثر عقد المؤتمر القومى الشعبى الأول للشيشان والأنجوش. وقام بمطالبة برلمان الجمهورية الشيشانية بتبنى إعلان السيادة على الأرض الشيشانية للشيشان، وخلال الأشهر بين عام 1990/1991م تم تحريض الروس لشعب الأنجوش بالانفصال عن الشيشان ووعدوهم باستعادة أراضيهم فى جمهورية "أوسيتيا" وأعلن الأنجوش انفصالهم فى جمهورية ذات حكم ذاتى تابع للفيدرالية الروسية وفى شهر يوليو عام 1991م عقد المؤتمر الشعبى الثانى للشيشان وكان الجنرال "جوهر دوداييف" قد تقاعد من الجيش وأصبح رئيساً للجنة المؤتمر الشعبى الشيشانى وتم فى هذا المؤتمر تبنى توصية باستقلال جمهورية الشيشان التام وسيادتها على أرضها، وفى شهر أغسطس من نفس العام حدث الانقلاب الفاشل فى موسكو، وعلى إثر ذلك أعلن المؤتمر الشعبى الشيشانى حل البرلمان وإعلان انتخابات برلمانية جديدة وانتخاب رئيس للجمهورية، وجرى ذلك بوجود مراقبين من جمهورية لتفيا وروسيا والدانمارك وكان ذلك بتاريخ التاسع والعشرين من أكتوبر 1991 وشارك فى الانتخابات 75% من السكان، وفاز بمنصب رئيس الجمهورية الجنرال جوهر دوداييف بنسبة 80% من بين ثلاثة مرشحين، وفى الثانى من نوفمبر 1991م أقسم الرئيس اليمين القانونية أمام البرلمان، وتم إصدار قرار استقلال الجمهورية والسيادة على أرضها

لم يعترف الروس بالاستقلال ولا بالانتخابات، وبتاريخ الثامن من نوفمبر 1991م أعلن الرئيس يلتسين حالة الطوارئ، وقام بإنزال ألفين من قوات أمن وزارة الداخلية فى أراضى الشيشان، مما أدى إلى قيام الشيشان بأسر الجنود، وطلبوا منهم تسليم أسلحتهم، وتم ترحيلهم بعد أيام إلى موسكو عائدين من حيث أتوا، وعلى إثر هذه العملية قام الروس بإلغاء حالة الطوارئ فى جمهورية الشيشان. وبقيت موسكو تحاول الإساءة لسمعة القيادة والشعب الشيشانى باتهامهم بتزعم عمليات المافيا والتجارة بالمخدرات. وتطورت الأحداث فى جمهورية الشيشان عندما أعلنت تشكيلات المعارضة المسلحة يوم السبت 26 من نوفمبر 1994م عن عزمها على اقتحام العاصمة، "جرو زنى" وسط مظاهرة إعلامية روسية عن قرب الخلاص من نظام الرئيس الشيشانى "جوهر داداييف" خلال ساعات. ثم أعلن بعد ذلك أن الاستيلاء على "جروزنى" فى الساعة التاسعة والنصف، وأنهم يعدون العدة للاحتفال بانتصارهم. وفى صباح اليوم التالى تبين أن قوات المعارضة المدعومة بالدبابات والطائرات الهليكوبتر قد انسحبت مخلفة وراءها الحرائق والدمار والقتلى والأسرى والجرحى. وإذا كانت المعارضة قد فقدت الكثير فى عملية اقتحام العاصمة الشيشانية "جروزنى"

وفشلت القوات البرية الروسية فى الهجوم؛ مما جعل القيادة الروسية تفقد أعصابها وتبدأ بقصف "جروزنى" قصفاً وحشياً همجياً، فدمرت المساجد والمباني والمنشآت الاقتصادية. وأما عن النتائج السياسية لفشل القوات الروسية فى السيطرة على "جروزنى" فقد كانت كثيرة وجعلت الموقف السياسى فى روسيا أكثر تعقيداً.